الفصل الثانى

تراجم علمية وأدبية

١

علماء وأدباء يتحدثون عن أنفسهم

لعل أقدم حديث لأدباء العرب عن أنفسهم هو ما أُثِرَ عن شعراء العصر الجاهلى فى فخرهم وحماستهم، وهو حديث شعراء لا يراد به إلى حكاية الواقع تماماً، بل تدخله المبالغة والتهويل، وظل ذلك غالباً على الشعراء فى العصور الإسلامية المختلفة .

وحينما أخذ العرب يدوِّنون أخبار شعرائهم وأدبائهم وعلمائهم كانوا ينقلون عنهم مباشرة كثيراً مما يدوِّنونه ، على نحو ما نعرف عن الأصمعى مثلا ، فإن كتب الأدب تتناقل عنه أخباراً مختلفة مع الرشيد ووزرائه وأدباء عصره وعلمائه. وإذا تصفحنا كتاب تراجم مثل الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى وجدنا كثيراً مما يقصّه عن الشعراء والمغنين يُنْتَمَل عن أفواههم، وخير مثل لذلك ترجمة إبراهيم الموصلى مغنى الرشيد المشهور . فإنه يروى أخباره فيها عن ابنه إسحق، وكثير منها مما حدّثه به أبوه .

ونفس كتابات الأدباء فى العصر العباسى كثيراً ما تتضمن أخبارهم وبعض وقائع حياتهم . ولعل الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م أكثر من عُنى حتى عصره بتصوير نفسه فى كتاباته . بحيث نستطيع أن نستخرج من كتبه ورسائله أكثر الخيوط التى ألفتْ نسيج حياته من الوجهتين الثقافية والمعاشية . ويجرى معه فى هذا الطريق ممن كانوا يعجبون به وبأسلوبه أبو حيان التوحيدى المتوفى سنة

٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م إذ كان يعانى غربة فى أهل زمانه ، ولم يجد من بينهم من يعرف فضله وعلمه وأدبه ويقدره حق قدره ، فتولى ساخطاً مغضباً ، يقصّ قصته ، من لقائه للوزراء وغيرهم ، ممن وضعوه دون منزلته ، وأخروه عن مرتبته ، وفى مقدمتهم الوزيران المشهوران : ابن العميد والصاحب بن عباد ، فألف فيهما كتاباً سماه مثالب الوزيرين ، روى فيه تجربته معهما ، وهى تجربة قاسية ، تحوّل وصفُها عنده إلى سِياط من الكلام ، تصور محنته فيهما وسوء حظه . وكان على ما يظهر متعجرفاً ثقيل الروح ، فازورّ عنه الوزيران ونبذه الناس ، وتصور ذلك رسالته « فى الصداقة والصديق » يقول :

« فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق ، والله لربما صلّيت فى المسجد فلا أرى إلى جنبى من يصلّى معى ، فإن اتفق فبقّال أو عَصّار أو نَدّاف أو قصّاب ومن إذا وقف إلى جانبى أسْدرنى بصنانه وأسكرنى بنَتْنه ، فقد أمسيت غريب النِّحْلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملا للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً ما لا بد من حلوله ، فشمسُ العمر على شَفَا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول » .

وبلغ من سخطه على الناس أن أحرق كتبه فى أواخر حياته ، وكتب إليه بعض أصحابه يعذله على صنيعه ، فأجابه برسالة طويلة ، ومن قوله فيها :

« إنى فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً مُثيباً ، فشق علىّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضى إذا نظروا فيها .. وعِيانى منهم فى الحياة هو الذى يحقق ظنى بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صَحّ لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حِفاظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحرّ أن

يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم » . ومع ذلك فقد بقيت لنا بعض كتبه ، وهى تفيض بهذه الإشارات إلى حاله التعسة .

وقد أخذت فى عصره تكثر كتب الجغرافيا والرحلات ، وهى تتضمن كثيراً من أخبار أصحابها وحوادثهم فى البلدان المختلفة التى كانوا يشاهدونها ويلمون بها واصفين أو راحلين. ويُجمل لنا المقدسىّ فى أوائل كتابه « أحْسن التقاسيم» ما عاناه فى رحلاته ، حتى كان يتنكر كثيراً ويدخل فى غير طائفة من الطوائف الإسلامية ، يقول :

« لم يبق شىء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكُدْية "الشحاذة" وركوب الكبيرة ، فقد تفقهت وتأدّبت وتزهدت وتعبدت . وفقّهت وأدّبت ، وخطبت على المنابر ، وأذّنت على المنائر ، وأممت فى المساجد ، وذكرت فى الجوامع ، واختلفت إلى المدارس ، ودعوت فى المحافل ، وتكلمت " ناظرت " فى المجالس . وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين الثرائد . وطُردت فى الليالى من المساجد ، ونمت فى البرارى ، وتهت فى الصحارى ، وصَدقتُ فى الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً ، وصاحبت عُبّاد جبل لبنان ، وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد ، وحملتُ على رأسى الزنبيل . وأشرفت مراراً على الغرق ، وتُطع على قوافلنا الطرق ، وخدمتُ القضاة والكبراء ، وخاطبتُ السلاطين والوزراء ، وصاحبت فى الطرق الفُسّاق ، وبعتُ البضائع فى الأسواق ، وسجنتُ فى الحبوس ، وأخذت على أنى جاسوس ، وعاينت حرب الروم فى الشوانى " السفن الحربية " وضرب النواقيس فى الليالى .. وكم نلتُ العز والرفعة ، ودُبّر فى قتلى غير مرة ، وحججت وجاورت ، وغزوت ورابطت . . وكُسيت خِلَع الملوك وأمروا لى بالصلات ، وعريت وافتقرت مرات . . ورُميتُ بالبدَع واتُّهمت بالطمع » .

وكل هذه تجارب صادفتْه فى رحلاته الجغرافية . وكثيراً ما يقف

الجغرافيون والرحّالة فى كتبهم، فيصورون تصويراً تامًّا ما يصادفهم من أحداث الحياة وما يلم بهم من خبراتها وغرائبها. ورحلتا ابن جُبَيْر وابن بَطُوطة من أطرف الرحلات التى تشتمل على مادة بديعة فى هذه الجوانب، وخاصة أنهما ساقا رحلتيهما فى شكل مذكرات يومية. ومن مصنفى الأندلس الذين ضمنوا مؤلفاتهم تجاربهم وخبراتهم ابنُ حَزْم المتوفى سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م وربما كان أكبر عقلية إسلامية ظهرت هناك، وله مؤلفات كثيرة فى الفقه وأصوله وفى الملل والنحل وفى التاريخ والسير وفى الفلسفة ومراتب العلوم والمنطق والأخلاق والطباع. وقد نُشرتْ له كتب ورسائل مختلفة يتداولها الناس، وهو يصارحنا فى كثير من جوانبها بخلُقه وتجاربه، غير ساتر لنقيصة فيه، وأهم كتاب حَمَّله اعترافاته والبوح عن نفسه كتاب «طوق الحمامة فى الألفة والألاّف» وهو يَعْنى بالألفة المحبة، وقد بحثها من جميع أطرافها. بحثها فى أصولها وصفاتها وأعراضها، ولم يطلق الكلام إطلاقاً، بل عرضه على التجربة والخبرة فى نفسه وسكان قرطبة لعصره من أمراء وعلماء وأدباء. ويهمنا ما اعترف به عن نفسه. فمن ذلك أننا نجده فى أثناء حديثه عن الحب وأنه إذا أحب صفة فى محبوب له لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها، يقول: «دَعْنى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر. ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه. وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت لا تؤاتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره ألبتة. وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجله». ويقول: «لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى. لأنى رُبيت فى حجورهن، ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب. وهن عَلَّمننى القرآن وروّيننى كثيراً من الأشعار ودَرَّبننى فى الخط، ولم يكن وكْدى "غرضى" وإعمال ذهنى مذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك. وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن، وأصلُ

ذلك غيرةٌ شديدة طبعت عليها وسوء ظن فى جهتهن فُطرت به ، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل » .

ولعل القارئ يعرف أن ابن حزم نشأ فى بيت مترف ، فقد كان أبوه من وزراء الأمويين فى قرطبة ، ومن أجل ذلك نشأ هذه النشأة الطريفة فى الحريم وبين النساء ، وكن حينئذ مثقفات ، فربّينه وقُمْنَ على تعليمه وقام هو على دراستهن ومعرفة طباعهن والوقوف على أخبارهن مما أتاح له فرصة واسعة لوصفهن فى هذا الكتاب وإيراد طائفة من حكاياتهن هن ونساء قرطبة الأخريات اللائى كن يتحدثن عن حُبّهن . ونراه يقول فى باب الوصل :

« ولقد جَرَّبْتُ اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها . فما للدنو من السلطان ولا للمال المستفاد ولا للوجود بعد العدم ، ولا للأوبة بعد طول الغيبة ، ولا للأمن بعد الخوف ولا للتروح على المال ، من الموقع فى النفس ما للوصل ، لا سيما بعد طول الامتناع . وحلول الهجر حتى يتأجج الجوى ويتوقد لهيب الشوق وتتضرم نار الرجاء . وما أصناف النبات بعد غِبِّ القَطْر ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات فى الزمان السَّجْسَج ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوّار ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر بأحسن مَن وصل حبيب قد رُضيت أخلاقه وحمدت غرائزه » . ويقول فى باب الهجر :

« حضرت مقام المعتذرين بين أيدى السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذلّ من موقف محب هَيْمان ، بين يدى محبوب غضبان ، قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد امتحنت الأمرين وكنت فى الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف لا أجيب إلى الدنيَّة ولا أساعد على الخضوع ، وفى الثانية أذلّ من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجع . وأتحلّل بلسانى ،

وأغوص على دقائق المعانى ببيانى ، وأفنّن القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضى » .

ويتحدث عما يصيب المحبين من البين الذى يُعَدّ شَجًى فى القلب وغُصَّة فى الحلق ، ويعرض لبين الموت الذى لا يرجى للمحبوب بعده إياب ، وهو القرحة التى لا تبرأ والوجع الذى يتجدد ، يقول :

« دعنى أخبرك أنى أحدُ من دُهى بهذه الفادحة وتعجلت له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حبًّا بجارية لى . . كانت أمنية المتمنى وغاية الحسن خَلقاً وخُلقاً وموافقة لى ، وكنت أبا عُذْرِها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى بها الأقدار ، واخترمتها الليالى ومَرُّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسنّى حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ولا تفتر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها " بكائها " . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن . . وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنستْ بسواها » .

وما نزال ننتقل فى الكتاب بين اعترافات ابن حزم عن نفسه ، ومن ذلك ما يرويه عن حب عفيف له بفتاة تعلقها قلبه وهو لا يزال فى مَيْعة الصبا ، فتمنعت عليه ، ولم يزده ذلك بها إلا تعلقاً وحبًّا ، يقول :

« وإنى لأخبر عنى أنى ألفت فى أيام صباى ألفة المحبة جارية نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخَفَرها ودماثتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مُسبلة السِّتْر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة العقود ، كثيرة الوقار ، مستلذّة النِّفار ، لا توجّه الأراجى " جمع رجاء " نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرَّس للأمل لديها .. على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فجنحت إليها وأحببتها حبًّا

مفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة وأسمع من فيها لفظة غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك إلى شىء ألبتة . . وإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه أنساً بقربها متعرضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره فى لطف حركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذى صارت إليه . فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره . وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لأنهن كن عدداً كثيراً » .

وهذه الاعترافات فى كتاب طوق الحمامة تجعله طرفة حقيقية . إذ قلما يعترف العرب فى كتبهم بوقائعهم اليومية على هذا النحو الذى نجده عند ابن حزم . على أن هذا الكتاب ليس ترجمة شخصية كاملة لصاحبه ، فإنه إنما يسوق لنا فيه جانباً واحداً من حياته هو جانب حبه ، وكثيراً ما يتحدث عن وقائع لبعض المحبين دون أن يسميهم ، وأكبر الظن أنه هو نفسه صاحب هذه الوقائع ، وخاصة أنه يسوق دائماً وراءها أشعاراً تصور حالة المحب أو المحبوب فى الواقعة .

ولا نلتقى حتى عصر ابن حزم بترجمة شخصية كاملة لأديب ولا لعالم ، وربما وجدت تراجم لهم ، ولكنها لم تصل إلينا ، وأول ترجمة حفظتها لنا الكتب ترجمة على بن زيد البيهقى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م وهو مؤرخ اشتهر بكتابين أحدهما فى التاريخ العام ويسمى « مشارب التجارب » وهو ذيل على تاريخ ابن مسكويه ، والثانى فى تاريخ الشعراء ويسمى « وشاح الدُّمْية » وهو ذيل على دُمْية القَصْر للباخرزى ، وهى بدورها ذيل على كتاب اليتيمة للثعالبى .

وقد ترجم البيهقى لنفسه فى كتابه « مشارب التجارب » وهو مفقود ، إلا أن ياقوت نقل لنا فى كتابه « معجم الأدباء » هذه الترجمة . ونراه فى مطلعها يرفع نسبه إلى الفاكه بن ثعلبة الأوسى ، ويستمر فيصل به إلى آدم ! ويقول إنه ولد سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م فى قصبة السَّابْزَوار من ناحية بَيْهَق ، وهى من ضواحى نَيْسَابور

فى خراسان، وقد أسلمه أبوه إلى الكتّاب، ثم رحل به إلى قرية شِشْتِمَنْد من قرى تلك الناحية حيث كان له ضياع بها ، وفيها أكمل دراسته النحوية واللغوية ، وحفظ أشعار الحماسة والمعلقات والمتنبي ثم انتقل إلى نيسابور فى سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وعكف على دروس العلماء بها من لغويين ، ونحويين، ومحدّثين، ومتكلمين . ويحصى لنا الكتب التى درسها فى كل فن . وفى سنة سبع عشرة وخمسمائة مات أبوه فانتقل إلى مرْو يتابع دراسته ، وتزوج بها ، وفى سنة ٥٢١ هـ عاد إلى نيسابور . وأصهر إلى واليها ومشرف مملكتها، وصار مشدوداً بوثاق الاهل والأولاد سنين . وتولى قضاء بيهق سنة ٥٢٦ هـ ثم تركها إلى الرىّ وتعلق بدراسة الحساب والجبر والمقابلة ، وتحول إلى بخارى فى خراسان ثم إلى نيسابور ثم إلى سَرخس وهو فى أثناء ذلك يدرس على العلماء . ويتحول إلى بيهق ثم إلى نيسابور حيث أخذ يدرس للطلاب فى مساجدها، وظل على ذلك من سنة ٥٣٧ هـ إلى سنة ٥٤٩ هـ إذ ارتحل عنها إلى بيهق لزيارة والدته. وقد مات فى تلك السنة كما مات ابنه أحمد . وهنا نراه يذكر ثَبَتَ تصانيفه، وقد بلغت نحو سبعين كتاباً، أكثرها فى الشريعة وشروح الأشعار .

ومن الأدباء العلماء الذين ترجموا لأنفسهم فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) العماد الأصبهانى ، وأودع ترجمته كتابه « البرق الشامى » وهو مفقود ، غير أن ياقوت احتفظ لنا فى معجمه بخلاصة هذه الترجمة . وممن ترجموا أيضاً لأنفسهم فى هذا القرن ابن الجوزى ، ولم يفرد ترجمته برسالته ، وإنما أتى بها عرضاً فى رسالة سماها « لفتة الكبد إلى نصيحة الولد » وهى نصيحة موجهة إلى ابنه ، ولكنه ضمنها غير قليل من أخباره ومؤلفاته ، ولعل من الخير أن نقف عندها وعند صاحبها قليلا .

٢

ابن الجوزى

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م وهو مؤرخ جليل، له فى التاريخ كتاب المنتظم وهو مطبوع، وقد تناولت مؤلفاته أكثر علوم عصره، وشهرته إنما ترجع إلى أنه كان فقيهاً واعظاً، إذ كان له أثر بالغ فى وعظ الناس بمسقط رأسه «بغداد» وإرشادهم، وقد رأى ابن جبير صاحب الرحلة المشهور مجلساً من مجالسه، فراعه روعةٌ شديدة حتى قال فيه:

«آية الزمان، وقُرَّةُ عَينِ الإيمان، رئيس الحنبليّة، والمخصوص فى العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حَلْبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم فى البلاغة والبراعة، مالك أزمّة الكلام فى النظم والنثر. والغائص فى بحر فكره على نفائس الدر. فأما نظمه فرضىّ الطباع، مِهْيَارى الانطباع، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بِقُسٍّ وسَحْبان» ثم يصف موعظة له ويقول إنه بعد أن فرغ منها «أتى برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح.. فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثَبَجَ البحر. ونعتسف مفازات القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة، والوجهة المفلحة الناجحة.. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه».

وابن الجوزى يبدأ رسالته «لفتة الكبد» بأنه وجد فى ابنه أبى القاسم توانياً عن الجد فى طلب العلم فكتب له هذه الرسالة يحثه بها، ويحركه على سلوك طريقه فى

كسب المعرفة ، وقد قسمها فصولا ، تحدث فى الفصل الأول عن العقل وأنه يهدى صاحبه إلى أنه مكلف أمام ربه بفرائض ينبغى أن يؤديها ، ويقفه على فضائل ينبغى أن يتحلى بها ، وليست الفضائل الكاملة إلا الجمع بين العلم والعمل . ودعاه فى الفصل الثانى إلى دراسة الفقه حتى يعرف ما يجب عليه من الوضوء والصلاة والزكاة والحج ، وحتى يندفع بعد ذلك فى الترقى إلى الفضائل مستعيناً بربه وطاعته لاجئاً إلى توفيقه ورعايته . وفى الفصل الثالث يسوق له من أحواله هو ما قد يرشده فى دنياه، وهنا يفيض فى الترجمة لنفسه ، يقول :

« وإنى لأذكر لك بعض أحوالى لعلك تنظر إلى اجتهادى، وتسأل الموفق لى، فإن أكثر الإنعام علىّ لم يكن بكسبى ، وإنما هو من تدبير اللطيف بى ، فإنى أذكر نفسى ولى همة عالية ، وأنا فى المكتب ابن ست سنين ، وأنا قرين الصبيان الكبار ، قد رزقت عقلا وافراً فى الصغر يزيد على عقل الشيوخ ، فما أذكر أنى لعبت فى طريق مع الصبيان قط ، ولا ضحكت ضحكاً خارجاً ، حتى إنى كنت ، ولى سبع سنين أو نحوها ، أحضر رَحبة الجامع ،فلا أتخير حلقة مشعبذ ، بل أطلب المحدِّث ،فيتحدث بالسير ، فأحفظ جميع ماأسمعه ، وأذهب إلى البيت فأكتبه . ولقد وفق لى شيخنا أبو الفضل بن ناصر رحمه الله ، وكان يحملنى إلى الشيوخ ، فأسمعنى المسند " مسند ابن حنبل" وغيره من الكتب الكبار وأنا لا أعلم ما يراد منى ، وضبط لى مسموعاتى إلى أن بلغتُ، فناولنى ثبتها ،ولازمته إلى أن توفى رحمه الله ، فنلت به معرفة الحديث والنقل . ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا فى زمن الصغر آخذ جزءاً ، وأقعد حَجْرةً "ناحية" من الناس إلى جانب الرَّقة ، فأتشاغل بالعلم. ثم ألهمت الزهد فسردت الصوم ، وتشاغلت بالتقلل من الطعام ، وألزمت نفسى الصبر ، فاستمرت . وشمرت ولازمت " العلماء" وعالجت السهر ، ولم أقنع بفن من العلوم ، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث ، وأتبع الزهاد . ثم قرأت اللغةولم أترك أحداً ممن يروى ويعظ ولا غريباً يقدم إلا وأحضره ، وأتخير الفضائل .

وكنت إذا عرض لى أمران أقدم فى أغلب الأحوال حقّ الحق . فأحسن " الله " تدبيرى وتربيتى ، وأجرانى على ما هو الأصلح لى ، ودفع عنى الأعداء والحساد ومن يكيدنى ، وهيأ لى أسباب العلم ، وبعث إلىّ الكتب من حيث لا أحتسب ، ورزقنى الفهم وسرعة الحفظ والخطّ وجودة التصنيف ، ولم يعوزنى شيئاً من الدنيا ، بل ساق إلىّ من الرزق مقدار الكفاية وأزيد ، ووضع لى من القبول فى قلوب الخلق فوق الحد ، وأوقع كلامى فى نفوسهم فلا يرتابون بصحته وقد أسلم على يدى نحو مائتين من أهل الذمة . ولقد تاب فى مجالسى أكثر من مائة ألف .. ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث ، فينقطع نَفَسى من العَدْو لئلا أسبق .. وها أنت قد ترى ما آلت حالى إليه ، وأنا أجمعه لك فى كلمة واحدة ، وهى قوله تعالى " واتقوا الله ويعلّمكم الله " فانتبه يا بنى لنفسك واندم على ما مضى من تفريطك »

وتتعاقب النصائح وفى أثنائها يسوق ابن الجوزى أخباره ، فمن ذلك قوله : « اعلم يا بنى أن أبى كان موسراً وخلّف ألوفاً من المال ، فلما بلغت دفعوا لى عشرين ديناراً ودارين ، وقالوا لى : هذه التركة كلها ، فأخذت الدنانير واشتريت بها كتباً من كتب العلم ، وبعت الدارين وأنفقت ثمنهما فى طلب العلم ، ولم يبق لى شىء من المال . وما ذلّ أبوك قط ولا خرج يطوف فى البلدان كغيره من الوعاظ ولا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئاً ، وأموره تجرى على السداد " ومَنْ يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب " » .

وعلى هذا النحو نطلع فى هذه الرسالة على نشأة ابن الجوزى ونعرف مدى إكبابه على الدرس والتحصيل وما أخذ به نفسه منذ صغره بالفضيلة والسيرة الزكية ، ينشد ما عند الله ، حتى أصبح واعظاً ، وأصبح لوعظه تأثيره فى النفوس لأنه يصدر فيه عن عقيدة صحيحة . وليس هذا كل ما نجده فى الرسالة ، فنحن نجد فيها أيضاً بعض مصنفاته ومؤلفاته إذ يقول :

« وقد علمتَ يا بنى أنى قد صنفت مائة كتاب ، فمنها التفسير الكبير

عشرون مجلداً ، وتهذيب المسند عشرون مجلداً ، وباقى الكتب من كبار وصغار تكون خمسة مجلدات ومجلدين وثلاثة وأربعة وأقل وأكثر . كفيتك بهذه التصانيف عن استعارة الكتب وجمع الهمم فى التأليف ، فعليك بالحفظ ، وإنما الحفظ رأس المال ، والتصرف ربح ، واصدقْ فى الحالين فى الالتجاء إلى الحق سبحانه ؛ فراع حدوده ، قال الله تعالى : " إن تنصروا الله ينصركم " " فاذكرونى أذكركم " " وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم " . . وعليك بكتاب منهاج المريدين فإنه يعلمك السلوك فاجعله جليسك ومعلمك ، وتلمَّحْ كتاب صيد الخاطر فإنك تقع بواقعات تصلح لك أمر دينك ودنياك ، وتحفَّظْ كتاب جنة النظر ، فإنه يكفى فى تلقيح فهمك للفقه ، ومتى تشاغلت بكتاب الحدائق أطلعك على جمهور الحديث ، وإذا التفت إلى كتاب الكشف أبان لك عن مستور ما فى الصحيحين " صحيحى البخارى ومسلم " من الحديث ، ولا تتشاغلن بكتب التفسير التى صنفها الأعاجم ، وما ترك المغنى وزاد المسير لك حاجة فى شىء من التفسير ، وأما ما جمعته لك من كتب الوعظ فلا حاجة لك بعدها إلى زيادة أصلا » .

وبذلك يضيف ابن الجوزى إلى تعريفنا بنشأته وتربيته وسيرته تعريفنا ببعض كتبه فى التفسير والحديث والفقه والوعظ ، وقد نُشر له فى عصرنا غير كتاب ، وهو حقًّا أحد العلماء الأفذاذ الذين أنجبتهم بغداد فى العصر العباسى الثانى .

ونمضى فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) فتكثر تراجم الأدباء والعلماء ، إذ تصبح الترجمة الشخصية سنَّةً متبعة بين كثيرين منهم ، وخاصة من ألفوا فى كتب التراجم العامة ، مثل ابن سعيد صاحب كتاب « المغرب فى حلى المغرب » فقد ضمَّن هذا الكتاب ترجمته وترجمة أبيه وجده وطائفة من أسرته ، وربما كان خيرُ من أفرد لنفسه ترجمة فى هذا القرن أبا شامة .

٣

أبو شامة المقدسى الدمشقى

هو شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م وهو محدث ومؤرخ كبير ، اشتهر فى عصرنا بكتابه « الروضتين فى تاريخ الدولتين» دولة نور الدين ودولة صلاح الدين الأيوبى ، وهو خير من أرخ لهاتين الدولتين ، وأتبع هذا التاريخ بذيل له ترجم فيه لرجال القرنين السادس والسابع للهجرة ، وحين تحدث عن سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م ومن توفّوا فيها ذكر أنه ولد فى تلك السنة . ولم يكتف بذلك ، بل ترجم لنفسه ترجمة ضافية ذكر فى أولها أنه عُرف بأبى شامة لأنه كان به فعلا شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر ، وقال إنه ولد بدَرْب الفواخير بدمشق ، وأصل جده أبى بكر من بيت المقدس . وأفاض فى الحديث عن آبائه وأعمامه ، ثم أخذ يتحدث عن نفسه بضمير الغائب ، فقال إنه بدأ يحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ فى معرفة القراءات السبع والفقه والعربية والحديث وأيام الناس ، وحج مع والده سنة إحدى وعشرين وستمائة ، ثم حج فى السنة التى بعدها أيضاً ، ثم سافر إلى بيت المقدس ورحل منه إلى الديار المصرية سنة ست وعشرين وأخذ عن شيوخها فى مصر والقاهرة ودمياط والإسكندرية . وعاد إلى دمشق عاكفاً على الاشتغال بالعلم وتحصيله والتأليف فيه .

ويقول إنه كان فى صغره يرنو إلى منزلة العالم الكبير أبى منصور بن عساكر الدمشقى ويطمح إلى أن تصبح له رتبته فى العلم ونشره وانتفاع الناس بدروسه وفتاويه ، فبلّغه الله فى ذلك فوق ماتمناه . ولكى يقفنا على ماوصل إليه من حُظْوة فى التقوى والعلم

وعند الناس يسوق إلينا طائفة من الأحلام والمنامات رؤيت له ، أو رآها هو لنفسه ، يقول :

« ورؤيت له منامات حسنة كانت مبشرات له بما وصل إليه من العلم وما يرجوه من الخير ، منها أن والدته ، رحمها الله ، أخبرته ، وهو إذ ذاك صغير يتردد إلى المكتب ، وأبوه رحمه الله يعجب من حبه المكتب وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان ، فقالت الوالدة : لا تعجب فإني لما كنت حاملا به رأيت فى المنام كأنى فى أعلى مكان من المئذنة عند هلالها ، وأنا أؤذن ، فقصصتها على عابر " مفسر للأحلام " فقال : تلدين ذكراً ينتشر ذكره فى الأرض بالعلم والخير . ورأى هو فى صفر سنة أربع وعشرين وستمائة كأن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قد أقبل إلى الشام منجداً لأهله على الفرنج ، خذلهم الله ، وكأن له به خصوصية من إفضاء أمره إليه والتحدث معه فى أمور المسلمين وهو يمشى إلى جانبه ملاصقاً منكبه ، حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل وهو يخبرهم ، وكأنه واسطة بينه وبين الناس . وفى هذه السنة رأى أيضاً كأنه والفقيه عبد العزيز بن عبد السلام ، سلمه الله ، داخل باب الرحمة بالبيت المقدس ، وقد أراد فتحه ، وثم من يمنع من فتحه ويدفعه لينغلق ، فما زالا يعالجان الأمر ، حتى فتحا مصراعيه فتحاً تامًّا ، بحيث أسند كل مصراع إلى الحائط الذى خلفه . . ورآه المهتار هلال بن مازن الحرانى متقلداً هيكلا وهو يقول : انظروا فلاناً كيف تقلد كلام الله . ورأت امرأة كبيرة كأن جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيت سوا ، وهى قرية من قرى غوطة دمشق ، وكأنهم سئلوا ما شأنهم قالوا ننتظر النبى صلى الله عليه وسلم يصلى بنا ، قالت وحضر تعنى مصنف هذا الكتاب ! ! ورأى الصلاح الصوفى أول ليلة من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متوجه إلى الحج ومعه من الزاد جميع ما يحتاج إليه [وهو متزود] تزوداً تامًّا يعجب منه الرائى . ورأى حسن الحجازى فى شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستمائة كأن قائلا فى عالم الغيب

لا يراه بل يسمع صوته يقول : الشيخ أبو شامة ولىّ هذا الوقت . . ومن ذلك منامات حسنة رآها له أخوه الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل، وهو أسن منه بنحو تسع سنين ، وكان من الصالحين رأى والدهما رحمه الله يقول له : عليك بالعلم ، انظر إلى منزلة أخيك ، فنظر ، فإذا هو فى رأس جبل ، والوالد والرائى يمشيان فى أسفله . ورأى فى صفر سنة سبع وخمسين وستمائة كأن مصنف الكتاب متمسك بحبل قد دُلِّىَ من السماء وهو مرتفع فيه ، فسأل إنساناً عن ذلك فى المنام ، فانكشف لهما البيت المقدس والمسجد الأقصى ، فقال له ذلك الإنسان : من بنَى هذا المسجد ؟ فقال : سليمان بن داود، فقال : أُعطى أخوك مثل ما أعطى سليمان ، فقال له : كيف ذلك ؟ فقال : أليس سليمان أوتى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ؟ أليس أعطى كذا وكذا وعدد أنواع ما أوتى ، فقال : بلى ، قال : وكذا أخوك أوتى أنواعاً من العلم كثيرة ! . ورآه الشرف الصرخدى فوق سطح بيت منعزل وهو يؤذن، ثم بعد الأذان قرأ " واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب " . ورأى أيضاً كأن القيامة قد قامت ومصنف الكتاب راكب على حمار وهو مسرع ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أطلب النبى صلى الله عليه وسلم على الحوض . ورأى الشرف بن الرئيس أيضاً القيامة ووصف من أهوالها ، قال : ورأيت فلاناً يعنى صاحب هذا الكتاب ، فسألته عن حاله، فقلت له : ماذا لقيت ؟ قال : لقيت خيراً . وإنما سطرت هذه المنامات وغيرها تحدثاً بنعم الله تعالى كما أمر سبحانه فى قوله تعالى " وأما بنعمة ربك فحدِّثْ " وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم :"لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له " » .

وهذه الرؤى فى جملتها تدل ، إن صحّت على صلاح أبى شامة وتقواه وأنه عُرف بذلك فى معاصريه ، حتى كانت تقترن آراؤهم فيه برؤاهم ، أو يقترن شعورهم بلا شعورهم . ويذكر شيوخه وأساتذته الذين تلقى عنهم العلم ، وخاصة علم الشريعة والحديث ، فى إجمال ، ثم يذكر مصنفاته ، وهى كثيرة ، منها ما

يتناول بعض مسائل الشريعة والقراءات والتفسير والحديث ، ومنها ما يتناول النحو واللغة ، ومنها مايتناول التاريخ مثل كتاب الروضتين . ونجد بين كتبه مختصرات كثيرة مثل مختصر تاريخ بغداد . وفى هذا ما يدل على أننا قد وصلنا إلى عصور الجمود فى الفكر العربى ، فقلما كان هناك من جديد . بل أصبحت صناعة القوم تكرار الماضى . يوجزونه إلى أبعد حدود الإيجاز ، ثم يعودون فيبسطونه بالشروح والحواشى . وهم فى هذا وذاك قلما يضيفون جديدا وإنما يعقّدون ، ويحاولون أن يفكوا ما عقدوه . ونجد بين مؤلفاته أرجوزة فى الفقه ، وهى رمز لما شاع فى هذا العصر ومن قبله وبعده عند علماء العرب من نظم العلوم تسهيلا للحفظ . وهو نظم يوضع فى عبارات موجزة شديدة الإيجاز ، ثم يشرحونها على طريقتهم فى شرح المتون النثرية . ولم ينظم فى الفقه فقط ، بل نظم أيضاً قواعد علم العروض والقوافى كما نظم مفصل الزمخشرى فى النحو ، ونظم شيئاً من متشابه القرآن الكريم. وكل هذا النظم تلخيص واختصار ، وهو تحول بالشعر عن غايته من التعبير عن المعانى الوجدانية إلى معان علمية خالصة ، لم يوضع لها ، وإنما وُضع لها النثر الواضح ، حتى تفهم . وكل ذلك يدل على أن القوم عُنُوا بالتُّراث القديم مما جعلهم يهتمون بتلخيص أنواع الثقافة الماضية ، تارة بالنثر ، وتارة بالشعر ، وقلما أضافوا جديداً وخاصة فى الأدب والشعر .

٤

كثرة التراجم العلمية والأدبية

لا نكاد نمضى بعد القرن السابع الهجرى حتى تكثر التراجم الأدبية والعلمية ، وخاصة عند العلماء الذين يؤلفون كتب الطبقات ، فقد أصبح سنّةً فيما بينهم أن يترجموا لأنفسهم بجانب ترجماتهم لغيرهم ، ومن أشهر من ترجموا لأنفسهم على هذا

النحو محمد بن محمد الجزرى المتوفى سنة٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م ومحمد بن عبدالرحمن السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦م والسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥م. أما الجزرى فترجم لنفسه فى كتابه «غاية النهاية فى طبقات القراء» وهو يستهل الترجمة بأنه ولد فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بدمشق، وأتم حفظ القرآن الكريم سنة أربع وستين، ثم أخذ فى سماع الحديث النبوى والقراءات وعنى بها عناية تامة، حتى أتقنها، ثم حج فى سنة ثمان وستين وسمع فى المدينة من شيوخها ولم يعد إلى دمشق، بل رحل إلى الديار المصرية فى سنة تسع، حيث واصل دراسته للقراءات السبع وما فوقها، ثم عاد إلى دمشق، ولكن سرعان ما تركها فى رحلة ثانية. يأخذ فيها عن كبار الشيوخ فى عصره، وعاد إلى الديار المصرية، فقرأ بها الأصول والمعانى والبيان على الشيخ سعد الله القزوينى، وألم بالإسكندرية، وسمع من علمائها. وأخيراً أُذن له بالفتوى وجلس للإقراء فى الجامع الأموى بدمشق وقصده الطلاب من كل فَجٍّ. وولى قضاء الشام سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة. ودخل فى آسيا الصغرى يقرئ الأمراء وغيرهم. ونزل ببلاد ما وراء النهر فى خراسان وحل بغير مدينة، تارة يقرئ الناس، وتارة يقضى بينهم، ثم توجه إلى البصرة فبلاد العرب، وطلابُ القراءات ينسالون عليه انسيالا، ويقول إنه ألف فى نَجْد «الدرة فى قراءات الثلاثة» وجاور فى المدينة ومكة سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، وفى إقامته بالمدينة ألف فى القراءات كتاب «نشر القراءات العشر» فى مجلدين ومختصره «التقريب» و «تحبير التيسير فى القراءات العشر» ويذكر أنه ألف قبل ذلك «شرح المصابيح»، كما ألف غير كتاب فى التفسير والحديث والفقه والعربية. ولا ينسى أن ينوه بما نظمه من المتون فى العلوم المختلفة، ومَرَّ بنا أن ذلك كان إحدى آفات العلم العربى فى أواخر العصور الوسطى، إذ تحول العلماء غالباً لا إلى الابتكار فى التأليف، وإنما إلى إعادة الماضى وتكراره بأسلوب جديد هو أسلوب الشعر، وهو أسلوب لم يُعَدّ للعلم والثقافة، وقد جنى ذلك على الشعر الغنائى نفسه، إذ أصبح الشعراء كالعلماء يدورون دوران

مجنون فى معان وصيغ محفوظة ، يبدئون فيها ويعيدون ، وقلما جاءوا بفكرة أو معنى جديد .

أما السخاوى فترجم لنفسه فى كتابه « الضوء اللامع فى رجال القرن التاسع الهجرى » ترجمة مسهبة ، ذكر فى أولها أنه ولد سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة ، واهتم به أبوه منذ نعومة أظفاره ، فأخذ يختلف به إلى شيوخ عصره فى القاهرة يقرأ عليهم القرآن الكريم وعلومه والنحو والعروض والحديث ، وهو يفصل الكلام فى ذلك تفصيلا واسعاً . وتعلم على الشيوخ كذلك الفقه والفرائض والتفسير ، ويفيض فى سماعه للحديث وعلومه ، حتى صار أكثر أهل العصر مسموعاً ورواية ، فقد أخذ عن أكثر من أربعمائة نفس ، ورحل إلى دمياط فسمع بها من بعض المسْندين . وحج وسمع بمكة من كثيرين ، كما أخذ عن غير واحد بالمدينة ، ورجع إلى القاهرة ، فأقام بها ملازماً للسماع والقراءة والتخريج والاستفادة من الشيوخ ، وتنقل فى البلاد المصرية يأخذ عن العلماء ويفيد ، محصّلا للكتب المختلفة . ثم رحل إلى حلب ، ويعدّد المدن التى مر بها ، ومن سمع منهم وأجازوه حتى اجتمع له من المرويّات بالسماع والقراءة ما يفوق الوصف ، ويأخذ فى سَرْد ذلك سرداً مفصلا ، ويذكر لنا بعض مجالسه ، ويقول إنه توجه للحج مع أولاده فى سنة سبعين ، وهناك حدّث بأشياء من تصانيفه وغيرها وأملى مجالس (محاضرات) بالمسجد الحرام ، ولما رجع إلى القاهرة أخذ فى إملاء بعض تخريجاته وحجّ فى سنة خمس وثمانين ، وجاور سنة ست ثم سنة سبع ، وعاد إلى الحج والمجاورة مراراً ، وحين رجوعه إلى مصر كان يأخذ عنه كثير من الخلائق .

ويذكر أنه شرع فى التصنيف والتخريج قبل الخمسين ، ويعرض علينا بعض تخريجاته لكتب الحديث ، ثم يسرد مصنفاته فيه وفى علومه وفى التاريخ وفى مسائل متنوعة من مسائل الشريعة ، ويذكر لنا من أثنوا عليه من كبار العلماء وخاصة المحدّثين ، ويسوق ثناءهم وشهادتهم له ، كما يسوق بعض ما نُظم فيه من مدائح ينوه أصحابها بعلمه وفضله وحسن وايته للحديث حتى غدا عَلَماً فيه ،

وتولى مشيخة تدريسه بمدارسه الكبيرة فى القاهرة ، وينتهى من ترجمته بقوله : « وهذا كله وهو عارف بنفسه معترف بالتقصير فى يومه وأمسه ، خبير بعيوبه . . لكنه أكثرَ الهذيان ، طمعاً فى صفح الإخوان » .

وأما السيوطى فإنه ترجم لنفسه فى كتابه « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » وقال فى أول ترجمته إنه يقتدى فى الترجمة لنفسه بالمحدثين والمؤرخين قبله مثل عبد الغافر الفارسى فى كتابه تاريخ نيسابور ولسان الدين بن الخطيب فى كتابه تاريخ غرناطة وابن حجر فى كتابه قضاة مصر . ويذكر أن جده الأعلى كان من المتصوفة ومشايخ الطرق ، ومن خلفوه من أجداده كانوا من أهل الوجاهة والرياسة ، أما أبوه فكان فقيهاً على مذهب الشافعى ، ويذكر أنه ولد بالقاهرة سنة ٨٤٩هـ /١٤٤٥ م . ولم يلبث أن توفى والده ، فنشأ يتيماً ، وعلى عادة أترابه حفظ القرآن ، ثم أخذ فى دراسة النحو والفقه والفرائض على كبار الأساتذة والشيوخ فى عصره ، واختلف إلى أصحاب التفسير والحديث والأصول ، ويذكر بعض من أثنوا عليه من شيوخه .

والحق أن السيوطى يعد أحد العلماء الأفذاذ الذين ظهروا بمصر فى العصور الوسطى ، وقد ترك كثيراً من المؤلفات ، حتى لتشبه فى مجموعها دائرة معارف كبرى تضم العلوم الشرعية واللسانية والأدبية والتاريخية ، وتحدث عن ذلك فقال : « شرعت فى التصنيف فى سنة ست وستين ، وبلغتْ مؤلفاتى إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه ، وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور . . وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين ، وعقدت إملاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين ، ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة الأعاجم وأهل الفلسفة » .

ويقصد السيوطى بطريقة العرب والبلغاء فى علوم البلاغة أنه كان فيها لا يعنى بما وصلت إليه هذه العلوم من تعقيد شديد عند متفلسفة العجم أمثال القزوينى

والسيد الجرجانى ومن إليهما ممن أحالوا مسائلها البسيطة إلى مشاكل عقلية على نحو ما هو معروف عند القزوينى فى تلخيصه ومَنْ شرحوه من أمثال الجرجانى والتفتازانى . ولم يكن السيوطى فى ذلك شاذًّا على أدباء مصر وعلمائها ، بل كانوا جميعاً فى عصره يذهبون مذهبه من العناية بالنصوص الأدبية دون الوقوف عند عقد التفتازانى ومن جرى فى إثره ، وهو يسمى هذا المنهج طريقة العرب والبلغاء.

وأخذ بعد ذلك يسرد مؤلفاته فى التفسير ومسائله وعلى رأسها كتابه «الإتقان» ثم فى الحديث وقد أكثر فيه من الشروح على أمهاته القديمة ، ثم فى التاريخ ، وقد كتب كثيراً فى طبقات العلماء المختلفين ، وكتابه «بغية الوعاة فى طبقات النحاة» من أشهر الكتب التى تعنى بتاريخ هذه الطائفة من العلماء ، وله فى النحو « همع الهوامع » ويعـــد موسوعة كبيرة فى هذا العلم ، إذ حشد فيه آراء العلماء المختلفين منذ الخليل إلى عصره فى العراق وغير العراق وكتابه « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » الذى ذكر فيه ترجمته من خير الكتب التاريخية . وقد ألف غير كتاب فى الأصول وعلوم البلاغة . وألف بجانب ذلك ديوان خطب ومجموعة مقامات ، ونظم فى غير فن ، وهو فى الحقيقة أعجوبة من أعاجيب مصر فى أواخر عصرها المملوكى .

وهؤلاء العلماء الثلاثة ترجموا لأنفسهم فى كتب ترجموا فيها لغيرهم ، وكثر فى عصورهم أن يفرد العلماء لأنفسهم تراجم فى كتيبات ورسائل مستقلة . وممن وصلتنا ترجمتهم على هذا النحو حافظ الشام ومؤرخه فى القرن العاشر الهجرى محمد بن على بن طولون الدمشقى الحنفى المتوفى سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م فإنه ترجم لنفسه فى كتيب سماه « الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون » وهو يذكر فى أوله أنه ولد بصالحية دمشق فى سفح قاسيون سنة ثمانين وثمانمائة ، وتوفيت والدته وهو فى المهد وكانت رومية تحسن لسان الأروام ، ونشأ فى حجر والده وعمه مفتى دار العدل ، واختلف إلى الكتّاب يحفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل إلى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم الحديث والنحو حتى مهر فيهما ، ويحصى لنا

الكتب التى قرأها عليهم فى هذين الفنين وفى الفقه الحنفى والقراءات وعلم الأصول والتفسير والمنطق والطب وعلوم البلاغة .

وكان النظام المتبع فى حمل العلوم أن تعطى فيها إجازات ، يشهد فيها الأستاذ لتلميذه بحسن تلقيه وأنه حرى أن يروى العلم عنه ، وهو يسرد علينا كثيراً من هذه الإجازات التى منحها له أساتذة عصره فى الشام وغير الشام فقد رحل إلى مصر وأخذ عن السيوطى أكثر كتبه فى الحديث والنحو وغيرهما ، يقول :

« ومن أراد الاطلاع على معرفة ماتيسر لى نوعُ إلمام به من أنواع العلوم فعليه بكتابى المسمى باللؤلؤ المنظوم ، فإنى ذكرت فى كل واحد منها ما تيسر لى من رسمه وموضوعه وغايته ، وعمن أخذته وماذا كتابى فيه ، وما لى فيه من تأليف إلى حين وضعى لهذا المؤلف . . ومجموع ماذكرت فيه من العلوم ثمانية وثلاثون علماً .. وفى ضمنها علوم أخرَ تزيد مع هذه على اثنين وسبعين علماً . وقد كتب لى كل واحد من هؤلاء الأشياخ ممن اشتغلت عليهم فى هذه العلوم إجازة وبعضهم إجازتين ، وبعضهم ثلاثاً ، جمعتها فى مجلدة . . خلا بعض الإجازات كتبت على الكتب المقروءة » . ويذكر لنا صوراً من الإجازات التى منحها له شيوخه ، يقول :

« فمنها ما كتبه لى العلامة الشمس بن رمضان حين قرأت عليه ألفية علوم الحديث وتلخيص المفتاح فى علم المعانى ومضافيه " البيان والبديع " : قرأ علىَّ الشيخ الإمام الفاضل البارع المتقن المحصل الذكى الألمعى اللوذعى محمد ابن طولون — جعله الله من عباده الصالحين ، ورزقه العلم ، وجعله من العلماء العاملين — جميع هذا الكتاب وهو تلخيص المفتاح فى كذا ، وكذا أيضاً قرأ الأرجوزة المنسوبة للعلامة الزين العراقى فى علم الأثر " الحديث " قراءة بحث وإتقان وتحرير وإمعان ، وورَّخـها فى مجالس آخرها فى ذى القعدة سنة سبع وتسعين وثمانمائة بالمدرسة القجماسية داخل دمشق المحروسة بحضرة جماعة من الطلبة . وقد أجزته بمذاكرته ماقرأه ممن التمسه منه ، مع ما يجوز لى روايته بشرطه » .

وكان لايقعد لإملاء الحديث النبوى خاصة إلا من شهد له شيخ بمثل هذه الإجازة حيطة وحذراً حتى لا يرويه من لا يحسنه أو من كان مجرَّحاً . ومن أراد الاتساع فى معرفة طرق رواية الحديث فعليه بالكتب الخاصة بمصطلحه ، فإنه واجد لروايته شروطاً وقواعد تشدد فيها القوم تشدداً واسعاً ، حتى غدت علماً معقداً من علومهم .

ويحدثنا ابن طولون بعد ذلك عن الوظائف التى تولاها ، وهى تدور على تدريس القراءات والحديث والفقه فى مدارس ومساجد مختلفة ، وعُهد إليه أحياناً بخدمة الكتب والقيام عليها كما عهد إليه بالنظر على بعض الخزائق والحبوس أو الأوقاف ، وتولى غير مشيخة ، وكان يتقاضى فى بعض وظائفه المتعددة خمسة عشر عثمانيًّا . وينتقل من بيان ذلك إلى سرد مؤلفاته الكثيرة فى كل فن ، ورتبها على حروف المعجم ، وهى تستغرق من الكتيب نحو عشرين صحيفة ، تلاها بما قيل فى مدحه وفضله وعلمه من شعر ونثر .